مع تطور ما سمي، آنذاك، المسألة الشرقية ودخولها في المرحلة الثانية من تاريخها؛ وهي المرحلة التي امتازت بانكشاف الضعف العثماني، من جهة، وبالسعي، من جهة اخرى، الى تقسيم الدولة العثمانية والتنافس الاوروبي على ذلك. وفي هذه المرحلة ارتبطت مسألة صهينة فلسطين ببرنامج عام يستهدف بلقنة الدولة العثمانية؛ وهو ما سيحدث فيما بعد.

في حقيقته، ان مشروع نابوليون بونابرت هو مشروع نموذج او مشروع نمطي يمثل، من حيث التفصيلات ومن حيث الجوهر، كل المشروعات الاوروبية الغربية المماثلة؛ كما يمثل، من حيث المضمون، المشروع الصهيوني ذاته الذي تبلور فيما بعد. انه مشروع ـ نمط لأن فيه تتجسد وتتجلى تلك المساعي الامبريالية التي سنجد نسختها الاخرى لدى دول اخرى وساسة آخرين في داخل اوروبا الحديثة اياها. ولئن كانت بريطانيا تمكنت، فيما بعد، من الاندفاع في تحقيق خطوات عملية بهذا الشأن، فذلك مرده الى ان الشروط الامبريالية الضرورية قد توفرت لديها، وليس الى غياب النية لدى الاخرين.

نقول، يكشف الخطاب النابوليوني في هذا الصدد ويمثل جوهر كل الفكر السياسي الغربي الحديث، والرسمي منه على الخصوص. فمنذ تأسيس الدولة الغربية الحديثة، أي منذ نهاية ما يسمى العهد القديم، ثمة ازدواجية واضحة في هذا الخطاب. ففي المستعمرات والمناطق التي سميت، فيما بعد، باسم العالم الثالث، لم يتوان الساسة الاوروبيون عن استخدام مسائل الاقليات من اجل احكام سيطرتهم وخدمة سياساتهم، وهي السياسة التي تلخصها تلك القاعدة الشهيرة المعروفة باسم «فرّق تسد». غير ان سياساتهم، على مستوى بلدانهم واقطارهم، كانت «علمانية» و «ديمقراطية»، ومعادية لاستخدام الدين كموضوع للعمل السياسي.

لا نريد، هنا، ان نستطرد طويلاً عند تحليل نص بونابرت، فهذا يتعدى اهتمامنا في سياق موضوعنا محدود الغرض.

ولا نريد، كذلك، ان نعطيه من الاهمية اكثر مما يستحق، ما دام بونابرت لم يتمكن من ان ينجز هدفه المرحلي، وهو احتلال فلسطين، وما دامت جيوش حملته هزمت على ابواب عكا، ولم تستطع، بالتالي، ان تحقق الخطوة الاولى التي يمكن ان تكشف مصداقية هذا النداء البونابرتي، والامكانات الواقعية التي يتوفر عليها في هذا الخصوص. فاهمية النص تظل، مع ذلك ـ بحسب رأينا ـ رمزية: السياق التاريخي لعملية احتلال فلسطين وولادة الحركة الصهيونية وعلاقة هذا السياق بتاريخ الدخول الامبريالي في المنطقة التي سميت، فيما بعد، بمنطقة الشرق الاوسط، ومن ضمنها اراضي الوطن العربي.

يمكن لنا، مع ذلك، ان نلاحظ ان هذا التصريح قد بني على اكاذيب ثلاث شديدة الوضوح:

تتمثل الكذبة الاولى في ان نص النداء صادر عن مقر القيادة البونابرتية في القدس، وهي واقعة تاريخية لم تحدث البتة، فجيوش الحملة الفرنسية سلكت الطريق الساحلي من مصر، مروراً بالعريش ويافا، وتوقفت شهوراً طويلة عند عكا، ولم تتمكن من ان تنتشر شرقاً باتجاه المناطق الداخلية لفلسطين (هذا اذا لم نتحدث عن كذبة التوجّه نحو دمشق).

اما الكذبة الثانية، فتتجلى في الغرض المعلن من النداء الذي هو ـ بحسب النص ذاته ـ تحرير فلسطين لصالح «ورثتها الشرعيين» ! ولسنا بحاجة الى التذكير، هنا، بأن غرض الحملة الفرنسية لم يكن هذا الغرض «التحريري النبيل».

بينما تتمثل الكذبة الاخيرة في ان التصريح يشير الى ان فلسطين قد تم احتلالها فعلاً، وان الدعوة البونابرتية الموجهة الى اليهود لم تكن بغرض قيام هؤلاء بالحرب، بل ليستلموها، ولكي